مجلة (لغة – كلام) تصدرعن مخبراللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 10/ العدد: 03- جوان (2024)

تاريخ الاستلام: 2024/02/09 تاريخ القبول: 2024/05/27 تاريخ النشر: 2024/06/30

شعرية التنوع اللغوي في رواية "ضمير الغائب"

✍ جيلالي نورالدين
djilanour80@gmail.com
جامعة غليزان /الجزائر

La poétique de la diversité linguistique dans le roman « La Troisième Personne

✍ DJILALI NOUREDDINE
djilanour80@gmail.com
University Relizane / Algeria

مُلخص البحث

تستدعي عملية الولوج إلى أعماق هذه الرواية البحث عن مفاتيح الخطاب السحرية، ولعل أهم تلك المفاتيح هي اللغة كونها وعاء يتسع لكل الألوان التواصلية، تلك القوة الكامنة المعبرة عن ما هو ظاهر وما هو خفي بإشاراتها ورموزها بحروفها، وكلماتها بإيقاعها وهمس أصواتها، ونجوى النقاط المتلاشية ضمن أسطرها، وفي إيحاءاتها التي تشع بالدلالات المتلألئة بالمعاني، كأنها أحجاركريمة تفصح عن ألوانها؛

الكلمات المفتاحية: ثراء اللغة، السرد، تماهي الأجناس الأدبية في الرواية، شعرية الرواية، الإيحاء والتأويل وضمنية الخطاب.

RÉSUMÉ:

Le processus d'entrer dans les profondeurs de ce roman appelle à la recherche des clés magiques du discour et la plus important de ces clé est peut_ètre la langue car c'est un contenur qui accueille toutes les couleurs communicative ce pouvoir latent qui exprime ce qui est apparent. Et ce qui cache avec ses signes et symboles dans ses letters, ses mots avec son rythme et le murmure de ses sons, et les points de décolorations dans ses lignes et dans ses révélations qui rayonnent de connotations chatoyantes avec des significations, comme s'il précieuses qui révélent leurs couleurs.

Keywords: richness of language, narration, identification of literary genres in the novel, poetics of the novel, suggestion and interpretation, and implicitness of discourse.

1.مقدمة:

توصف الكتابة الروائية الجديدة أو الحداثية، بأنها كتابة ملتبسة تتمرد على مقولة الأجناس، ولا تقر بصفاء الجنس؛ بل تعمل على انتهاك الحدود الفاصلة بين جنس الرواية والأجناس الأدبية، ".مما اكسب اللغة ثراء واغترافا من العمق الشعري ورمزيته، لـ" تلتبس لغة السرد العادية باللغة الشعرية المحضة؛ حيث يتحقق تكثيف الانفعالات والأحاسيس والرؤى، وبالتالي ضبط مسار الإيحاء.

ومن ثم فإننا لا نغدو أمام قانونية السرد المتعارف عليه؛ وإنما نلفي أنفسنا في رحاب المروق عن هذه القانونية هذا المروق الذي تلعب فيه اللغة لعبة الانحراف التام والمطلق...فالشعر من خلال هذا انحراف عن العادة وفق قدرة الخلق والتشكيل، علما بأن إلباس السرد لباسا شعريا يخضع بالضرورة إلى جانب الخلق والتشكيل إلى الاختيار، اختيار الشفرة والأسلوب الذي عن طريقه يتحقق نقل الخطاب أو الرسالة "[1]، وانتقاء لغة تربك حواس المتلقي إيقاعا وإمتاعا وتذوقا، إلى أن تغدو اللغة بدلالاتها لا تقتصر عن إثارة وعي المتلقي؛ بل تثيره في جسده من لذة وألم، وقد تشكل له حاسة يحسها بقلبه حين تشعره بالأمل أونشوة الفرح وقد تحمله فوق بساط اليأس، والذعر الغامض، ولغة الخوف، وانقطاع الأمل.

فاللغة وحدها التي تتسع أنسجتها، لكل هذه الأنساق المتلونة، مثلما هي لغة الرواية في صوت الشهيد المهدي بن محمد "الذي يستحضره ابنه الحسين المحقق في قضية استشهاده: "قلبي كان يتمزق يا الحسين لكنها الحرب يا ابني، وفي الحرب إما أن تَقتل من يصوب بندقيته نحوك أو تُقتل، اليوم كان باردا، حاولنا أن ننسى الهم، شربنا القهوة، ضحكنا أو حاولنا على الأقل فعل ذلك، تحدثنا عن العملية ومعظمنا كان لديه شيء في أعماقه لم يستطع قوله، ومع ذلك كانت ابتساماتنا تختلط مع صمت الظلم، ونزيف الجراح المفتوحة، وخشخشة الحشرات التي اختلطت بدورها مع النسائم الأولى للفجر، فتحت عيني، تأملت الغابة، كانت صامتة وهواؤها أخافني، شعرت بذعر ما يصحبه هذا الليل الذي مر بسرعة..."[2]؛

2. ثراء لغة رواية ضمير الغائب :

فهذا المقطع يضمر ويفصح باللغة التي التبست فيها صور البوح، والصمت والتعبير والتصوير... كأنها فسيفساء لغة داخل لغة، مثل المحار: مجوف وفي جوفه جوف داخل الجوف صمت يلف جوهرة اللؤلؤ أو ما تجلى في المقطع من اللغة المشفرة، نحاول توضيحها والكشف عن علاقاتها الدلالية من خلال المخطط التحليلي التالي:

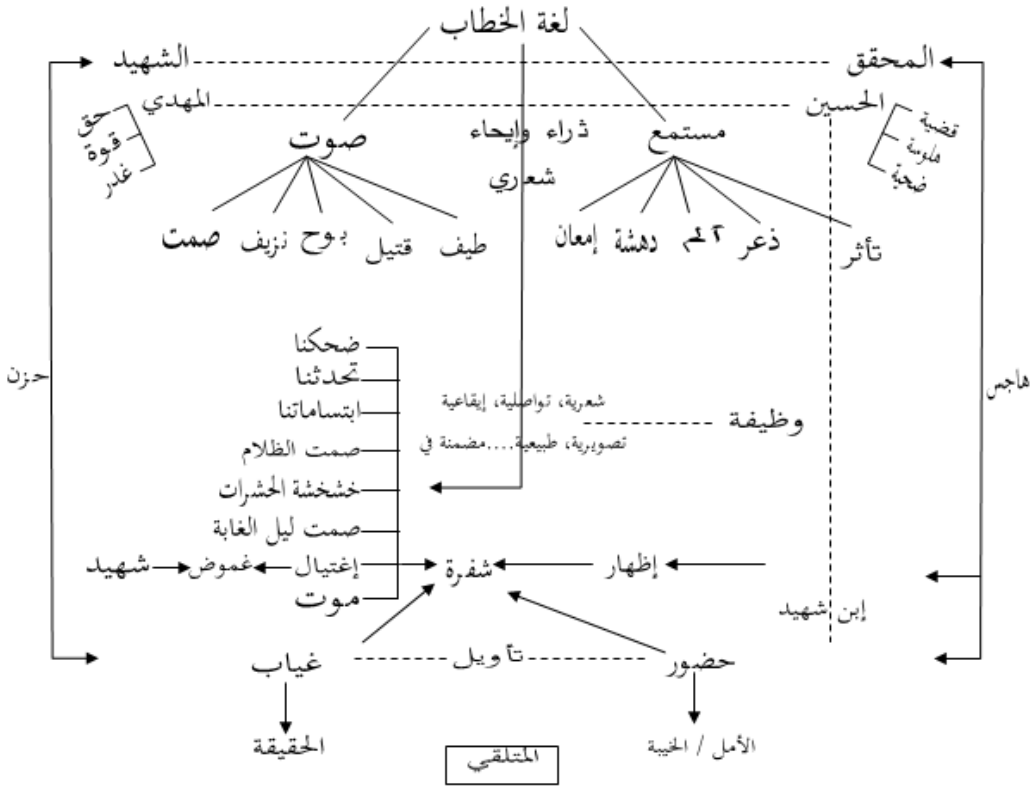

وفي هذا المخطط حاولت من خلاله تقديم ملخصا للرواية وإبراز أهم عناصره المتمثلين في الحدث وطبيعة اللغة، فالخطاطة الذهنية دورها اختبار مدى الاستيعاب الناتج عن القراءة، وأهم ما يرسخ في ذهن القارئ (المتخيل القرائي) وكذا كيفية التواصل مع النص بإزاحة ما هو خارج التأويل.

أ - مستويات البنى اللغوية :

تمثل لغة الرواية إمكان وجودي متأصل امتزج بالكينونة الجزائرية وخصوصيتها التواصلية، والإحالة اللغوية الكامنة المستوحاة من ثقافة المبدع بإيحائها وانزياحها ورمزيتها الأسطورية، مما أغدق الخطاب ومنحه مستوى ظاهريا تواصليا، منتمٍ للمكان الذي ترعرع فيه، منقع بالمحلية ومستوى باطني تأويلي موحي، فيه نبرة عالمية، انزياحي يتناص مع غيره، احتوائي مؤسس على لغة التوقع والممكن.

-"مستوى إعلامي وعلمي يستحضر شبكة من المناصات والإشهارات، والمقتطفات التي تدفع المتلقي إلى البحث وتحيله إلى التأويل، وطلب المعرفة مشكلة له مأزقا معرفيا وسلطة متعالية يشعر بفوقيتها وهيمنتها .

" اللي مضيع ذهب، في سوق الذهب يلقاه .

اللي مضيع محب، يمكن سنة وينساه .

بس اللي مضيع وطن، وين الوطن يلقاه."[3]

-"الله غالب، مسيردي وزاد رأسه قاصح كالشاوي، كارثة."[4]

-" لدي حاسة أخرى لست أدري كيف أسميها تحتفظ بكل الأشياء المهمة:العنوان: الحاسة السادسة موجودة في المخ.بتاريخ../../ 1983 . فريق من العلماء بجامعة مانشستر البريطانية، توصل إلى اكتشاف جديد مثير، يتمثل في العثور على حاسة مغناطيسية غريبة تكمن في المخ..."[5]، ثم ينتقل إلى نوع آخر من المناصات "قف وتأمل أيها المار في هذا الشارع وفي كل الشوارع، توقف قليلا. قصص عجيبة غريبة تمتعك حد الرعب، يقف لها شعر رأسك، كنوز أغاثا كريستي، وأرسين لوبين، وتشيز ترحب بك، دينار منك يغنيك عن سنة من المعرفة، ويفتح أمام عينيك عجائب الدنيا، اقتن نسختك قبل نفادها"، كل الآلات في هذا الجناح تحمل ختم جناح تجميل الأنوف باللغات الأجنبية، يسمع زر الضغط، تبدأ الآلات الغريبة حركتها المتسارعة جدا."[6]

"هذا المخ الممتلئ حد الانفجار والانشطار إلى شظايا، صار من الصعب علي أن أحرك رأسي كما اشتهي ."[7]، "تذكرت ما قرأته عن الانتحار، قد يؤدي اكتشاف علمي حديث إلى معرفة أسباب النزوع للانتحار، وهل هو نقص مواد كيماوية معينة في الدماغ تدفع الإنسان إلى الانتحار؟. هذه المادة الكيماوية المهمة تدعى سيروتونين، وهي عبارة عن جهاز إرسال عصبي... وطبقا لدراسات الدكتور مايكل سانلي الأستاذ في جامعة واين ستيت في ديترويت، يقول: إنه يحدث نقص... مقارنة تسعة أشخاص من المقيمين في مدينة نيويورك، والذين سبق لهم أن حاولوا الانتحار مع أدمغة تسعة أشخاص ماتوا للأسباب أخرى... وسيكون بالإمكان عندئذ معالجة الانتحار بمادة الترازودون المضادة للاكتئاب، مع استخدام عقار تجريبي سمى زميلادين، بالإضافة إلى رفع إنتاج السيروتونين، تقبلوا مني هذه التفاصيل، صدقوني إنه ليس استعراض عضلات علمية؛ وإنما هذه ذاكرتي. أحيانا تفقد كل شيء حتى صلتها بالعالم، لكن القصاصات التي تنام في الدماغ، حرفة الصحافة"[8].

فالمتلقي يصطدم بهذا الإبهار اللغوي، فيجد نفسه بين مستويات لغوية جد معقدة متشابكة، فهو أمام اللهجة بحنينها وانتمائها، وأحيانا أمام لغة فصيحة أصيلة، تضمر اللطافة والقوة بشعريتها وإيحاءها، وقد تتخللها مقاطع وملصقات من الجرائد والإشعارات، وكأنه يشير إلى صيرورتها التي لا يلحقها تغيير في إبلاغيتها وموضوعاتها منذ الخمسينيات إلى يومنا هذا، أو تتجاوزه حول أخبار الاغتيالات والانتحار والاختلاس وشبكة المخدرات والخمور، فهي لغة لا تكاد تبرح الجرائد اليومية.

ثم يوظف بنية لغوية اكتشافية محملة بالفيزياء والكيمياء وشتى العلوم، وذكر أمكنة متنوعة من العالم، وتوظيفه للغة الأجنبية، مؤسسا بذلك لرواية تتعد الحدود الجغرافية، وتتجاوز في سرديتها المألوف نحو التشييد لكتابة عبر النوعية والرواية الموسوعية بلغتها، وموضوعاتها تحول واقع التاريخ إلى تحقيق متوقع، وتأسيسا لرواية حداثية ممكنة.

-اللغة الفصحى:

يشيد مدائن الخطاب الروائي" عالم لغوي، فبالغة نتحسس عمق الواقع ومأساة الإنسان فيه، وباللغة نتحسس رؤية الكاتب ولهاثه وراء المغزى المفقود في الحياة، وقد يأتي القاص بين الحين والأخرى بلغة مسلوبة القوة... لغة بسيطة؛ بل ساذجة، ولكن هذه اللغة التي يؤتى بها على سبيل المفارقة، تزيد مع تعقد العملية اللغوية عندما ترص هذه اللغة جنبا إلى جنب مع اللغة الشاعرية الأخرى"[9]، مبرزة قدرة المبدع في مزجه لشتى مستويات اللغة، وتشكيل رصانة بنيتها.

لذا فـ" تحليل اللغة الروائية، ودراستها بأساليب اللسانيات المعاصرة، لن يفيد شيئا كثيرا في فهم وإدراك بنية الخطاب الروائي؛ لأن المستوى الذي تقوم عليه هذه البنية يتجاوز المستوى التركيبي للغة، يتحول إلى مستوى أعلى هو المستوى التركيبي الحدثي"[10]؛ لأنها تشكل شبكة علائقية بين أمكنة وأزمنة الحدث ونسقية الإيديولوجيات الكامنة في شخصيات الرواية.

فـ" الذي ينبغي أخذه بعين الاعتبار هو العلاقات الكلية للنص الروائي، ففي مستواها تولد البلاغة الحقيقية للرواية "[11]، وقد تغدو اللغة ثمرة يانعة ينجذب المتلقي للذاتها، وتنال إعجاب ذائقته وينعها الممتع، حين الشعور في بداية قراءته وتذوقه بفجاجة طابعها الفلسفي، أو بلحها التاريخي، أو ما تفرزه من أحماض ودماثة اجتماعية تنفره، فلم تأسره إلا اللغة ووهجها الشعري الذي يبدد ظلمة أسره بضوئه القمري، ويقصر ليله ببيضات وفجوات تنفجر بالمعاني التي تؤكد انسجامه واندماجه مع النص، حين ينقشع غموضه، ويتجلى فجر أحداثه، فتتفكك قيود أسره، وينتعش نشوة الفتح لغزوه، منتجا دلالات النص ومتذوقا متعه ولا يتم ذلك إلا باللغة لما تحمله من طاقات، وإيحائية دلالية، فهي تماهي بين المكونات لتحقق سياقا روائيا، و"نسيجا خصوصيا من الكلام، أو بنية خاصة تنصهر فيها الكلمات والأفكار والمشاعر والرؤى في حس واحد ودفق واحد"[12]، تنتقي من الشعر إيحاءه واتقاءه، وما يضمره من جمالية، و"من خصائص اللغة الشعرية؛ فإنها لا تفعل ذلك بطريقة حرفية تفضي بها إلى التماثل أو المطابقة؛ بل تحاول أن تتحرك بهاجس داخلي شعري رؤيوي، يكسر الكثير من عادات النثر وثوابته"[13]. فالرواية لا تنسج نصها على منوال الشعر في شكله وصورته؛ بل تستعير منه سيمفونيته وتصويره وإيجازه الدلالي، دون إيجازه اللفظي واحتواء قاموسه اللغوي لتقوية ما شيدته كتابتها النوعية التي ترنو بها إلى اللغة الموسوعية، والتي تمتزج فيها الرؤى الإنسانية والذات العالمية والإحساس بالجمال المتعدي، والذي يتجاوز الذات الكاتبة إلى "أوسع من أن تكون هندسة ألسنية، فهي تكشف عن كينونتها وثرائها في الأشكال المتنوعة التي تتبدى في الابتكارات الفنية والجمالية، أو الأساليب البلاغية والخطابية أو المهارات المجازية والاستعارية "[14]، ليتمكن الخطاب الروائي الجديد أن يوظف إمكانات اللغة الشعرية إلى أقصى الحدود الممكنة، حين نلتمس فصاحة الراوي في الوصف ورصف الأحداث، ثم التعليق عليها.

وقد كان هذا التحقق حلما من خلال ما كتبه "بودلير ":"من منا لم يحلم يوما بمعجزة النثر الشعري، نثر يكون موسيقيا بلا وزن ولا قافية، طيعا غير متسلط، لكي يتوافق مع الحركات الغنائية للروح وتموج

أحلام اليقظة، ورجفات الوعي؟"[15] ؛ فتطلع هذا الشاعر منذ القرن 18 عشر قبل أن تعرف الساحة الأدبية النظريات النقدية الحديثة في مجال التلقي واللسانيات، والتحولات النظرية للرواية الجديدة.

كما نجد مستويات اللغة تتداخل فيما بينها مشكلة بنية لغوية شديدة التلاحم، والنسج بين توظيف اللهجة إلى جانب الفصحى التي تخللهما لغة شعرية متناغمة في بنية موحدة تعكس تنوعا لغويا ثريا مثلما يجسده هذا المقطع:"– نحبك ونموت عليك من الصعب أن تجد امرأة مهبولة عليك مثلي، احرق الدنيا ياصديقي، وانسى الهم ينساك. دخن وخلها على ربي. نتضاحك عاليا، نتلون كالعصافير ثم نركض، نركض، تتكسر تحت أرجلنا برك المياه الباردة، نركض حتى يصيبنا ضباب المدينة، وأصداء الفرح والقهقهات التي لا حد لها، وقبل أن تعود إلى بيتها الصغير في صفح الجبل يكتظ بالناس الفقراء، أتأمل عينيها الواسعتين كالأيام الرائعة، تتمتم في شفتي، أشعر بحرارة أنفاسها.

- هل تحبني يالحسين ؟
- احبك .
- قد البحر، قد السماء، .وسع ما تراه عيناك، ووسع الأحلام الجميلة التي لا تحد ثم تختفي واختفي معها في منحدرات المدينة، يوم سرقتها مني عجلات سيارة سوداء، كانت الشوارع في حداد، تحولت إلى توابيت تضم بين أخشابها ألاف الخلق، عدت إلى البيت وحيدا، منكسر القلب"[16].

فاللغة في هذا المتن تكشف عن طبيعة الشخصية، فلغة مريم عبارة عن لهجة عامية فهي غير متمدرسة بحسب وصف الراوي: "وقبل أن تعود إلى بيتها في صفح جبل يكتظ بالناس الفقراء"، أما الحسين فهو صحفي، شخصية مثقفة توحي لغته بالقوة والإيحاء، مشحونة بالشعرية "- وسع ما تراه عيناك ، ووسع الأحلام الجميلة التي لا تحد"، كما يتخلل الرواية بعض العبارات باللغة الفرنسية، نظرا للخصوصية الجزائرية في تواصليته، ونظرا لما خلفه الاحتلال الفرنسي الذي طالها أكثر من قرن وثلاثين سنة:

"C'est ça La Logique de la vie . Laissez nous vivre en paix. Merde "[17]

- اللغة الدينية والاقتباس:

حظي خطاب "ضمير الغائب" بسياقات وعبارات دينية تحاكي قيم الخصوصية الجزائرية وجبلته الإسلامية، من ابتهالات، وذكر الله، وحق الفقراء، ومنزلة الصدقة، مما اكسب المتن بعدا متعاليا يسمو بإنسانيته في إظهار طابع القداسة لدينه، وإعلان انتمائه الذي يتماها مع شخصيته، ويجري مجرى الدم في عروقه، على اختلاف المستوى الثقافي لشخصيات الخطاب." عاد المستشفى إلى ممارسة نشاطه بكثافة ودهاء، يقال على أطراف الأزقة الموبوءة. إن شخصا غنيا قام بتمويل جانب منه ابتغاء محبة الله

والفقراء، وترحما على أمه التي طحنتها أقدام الحجاج والطوافين لحظة رمي الجمرات"[18]، كما تظهر اللغة الدينية في الحالات العصبية حين تقترن بالتفاؤل والمعانات، مفوضة الأمر لله:

". كيف كانت إجازتك، إن شاء الله ارتحت ؟ .

.والله سيئة، سيئة جدا يا بلقاسم خويا.

.خيرا إن شاء الله ؟ "[19]

فتمتزج هذه السياقات بالاستفهام والبياض مما يشوبها الغموض والصمت المصاحب لها لدى القارئ – تسلسل التأويلات وتعاقبها التي أشار إليها "إيكو" مع "إيزر" في منجزهما النظري المؤسس لعملية القراءة، وخصوصا حينما يؤكد "إيكو" بدوره على أهمية وضرورة أن يدخل النص في قواعد لعبة فضاءات بيضاء" تستلزم إستراتيجية معينة للكتابة، يكون بإمكانها أن تتيح للقارئ بالفعل المساهمة في القيام بدوره التأويلي على أكمل وجه"[20]، متطلعا إلى خبايا الذات التي ينشأ عنها أفق الانتظار، "قف بإجلال أمام هذا الرجل غير العادي، قم ولا تكن مثل الشيطان، فتفقد الجنة والنار، لتعيش في اللامكان"[21]، كما نجد لغة الحسين يشوبها طابعا حلميا، وتميل إلى الهذيان والهلوسة، كما يصف هو نفسه بالالتباس والجنون، "بللت رأسي ووجهي، شعرت بأني كنت فعلا ثملا حتى العظم، حمدت الله أنها مجرد سكرة، وسيأتي بعدها الصفاء، وإن قصة المهدي ليست أكثر من حالة التباس يصاب بها السكران:

.يا بابا المهدي لو تدري؟ أنهم يشككون في صفة الشهيد فيك، تلك السيدة التي فقدت بؤبؤ عينيها عاشت غيابك بعمق الأنبياء وبصوفية الأولياء الصالحين..."[22].

فهذه السيدة التي يتحدث عنها الحسين هي أمه، فرغم أميتها إلى أنها تتصرف بحكمة بالغة " لو تعلم يا بابا المهدي ما فعلته أمي من أجلك ستقدسها... لا أتصور أنك كنت ستفعل ما فعلته، يبدو لي أن الرجال مركبين بشكل سيئ، بسرعة نقنط ونيأس، وصلت مع عمي البوحفصي، الله يرحمه، ووضعت لك شاهدا رخاميا كتبت عليه: هنا يرقد المرحوم الشهيد المهدي بن محمد زوج عيشة المنورة، تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جنانه، حتى الآن تحتفظ بقطعة الرخام وتنتظر اليوم الذي تلم فيه عظامك وترتبها عظما عظما، ويبنى لك قبر في هذه البلاد"[23]. وتواصل بلغتها المحملة بالقوة والعظمة. "فهؤلاء الناس في مصاف الأنبياء والخالدين، مال الدنيا قاطبة في جرة من ذهب. لا يرجع وجها غاليا أتلفه الصمت، قبور الشهداء غطتها الأعشاب البرية الجافة ...ثم تصرخ أمام موظف البلدية قبل أن تلين من حديثها:

.يا سيدي، اقسم إنه مات شريفا، لكن يا الحاجة ما عندكش الكواغط. ملفه فارغا ..." [24].

إنها لغة تمتزج بالروحانية والقداسة، تستميل القارئ مضفية على المتن جوا من السمو والطهر، يتأثر لها القارئ وتحفزه على مواصلة القراءة .

- توظيف اللهجة :

يوهم الخطاب الروائي المتلقي بعناصره الواقعية، مخيلا إليه تصوير حياة الشخصية بشفافية تامة وبزخمها الثقافي بكل ما تمليه من مفارقات وفوارق في لغتها، ونمط تفكيرها، ونظرتها للأشياء وغيرها مما يرتبط بالشخصية، لذا "فالكلمة هي أداة التفكير والتعبير وأسلوب المحايثة، والمكون الذي يحدد طبيعة القضايا المعرفية للإنسان وقدرته التفكيرية والإبداعية داخل العقل وعملياته التنظيمية والذهنية بوجه عام بين الإنسان والمؤثرات الداخلية والخارجية التي تمارسها الطبيعة عليه "[25].

فالراوي إذا تصرف في لغة العامة الصادرة عن شخصيات عامية إلى لغة فصيحة ويخضعها للتركيب النحوي يجد نفسه متورطا يؤدي وظيفة المترجم وتغدو بذلك لغة شخصية الاسكافي مثلا نفسها لغة الأستاذ وحوار البنت مع أمها محمل في لغة موحدة وبالتالي لا يستقيم الحوار في هاته الشخصيات لأن اللغة مرتبطة بالتفكير وتعكس عمق ثقافة الشخصية ونمط تأليف لغتها.

وقد يفقد الإيقاع الصوتي للغة الحكي شحنتها ويخبو بريقها وحرارة تأثيرها وتصوراتها الذهنية فتضحى مفرغة من مفهومها واجتماعيتها. لذا فتوظيف العامية يمنح الشخصية قدرها الثقافي ويحدد مستواها الاجتماعي. " المطلوع. الله يخرب بيتك لا يوجد أحسن منه. تسألني أنا عن البولانجي من وين نجيبو لك ؟ 26"

فبائعة البيض المسلوق والخبز بلغتها العامية تعكس جوانب من الحياة اليومية لمجتمع المدينة ومعانات المرأة حين يدفعها. الفقر إلى العمل وتهكم المارة الذين يرفضون لها هذه المنزلة.

كما إن خروجها إلى الشارع اكسبها تنوعا في لهجتها حين توظف اللهجة المصرية. "بعضهم يدفع عربات الزريعة والكاوكاو. بعضهم يبيع أوراق الحظ... والمخذرات، وآخرون احترفوا صنعة قنص الجيوب، عيونهم مثل عيون الطير، لا تستقر في مكان. يعرفون القروي من عينيه ومن شكل ابتسامته ومن حركة يديه وتلوينات وجهه، متوحشون كالقطط. لا تعلم من أين يفاجئونك بتوددهم: عمي تحب الويسكي. الكاوكاو والزريعة؛ عمي تحب نرفد لك الحقيبة. تحب نوري لك هوتيل وإلا الحمام وين التبات"[27]. فهذه البنية اللغوية المتداخلة التي تتفاعل فيها عدة أصوات متناغمة بإيقاعها السريع وتداخلها مع وصف الراوي، يعبر عن الصورة الحقيقية للمتكلم فـ " العامي من الكلام العربي بمفهومه الواسع ينسب إلى العامة وهو كلام الناس أحاديثهم العادية... كانت من قبل عربية صحيحة وفيها الأصيل الذي لم يصبه تحريف سوقي وفيها الأجنبي الدخيل كما أن فيه أخلاطا كثيرة من أصول مختلفة " [28] . إلا أن استحواذ الخطاب على اللهجة أو اللغة الثالثة كما يدعوها د. احمد المعتوق، بشكل كبير يضعف المهمة اللغوية للإبداع وقد يؤدي " التعدد اللساني المدمج الذي يمثل خطاب الآخرين داخل لغة الآخرين تتكسر أمامه نوايا الكتاب"[29]. مما يحد من عمق نظرته ويميل عن فلسفة تفكيره الإبداعي كما أن اللهجة وبروز

الشخصية العامية في الرواية يؤدي إلى سطحية الحدث وينكشف أمام المتلقي غموض خفاء النص الذي يمثل سر الإبداع وجوهره.

ب. الحضور الأسطوري:

يميز أسلوب واسيني الأعرج حضورا أسطوريا مكثفا في معظم رواياته وبخاصة روايته "ضمير الغائب" مشكلة إمكانا منفتح الدلالة التي تستمد امتدادها وعمقها من "منجز روحي إنساني تمكنت الإنسانية عن طريقه من خلق حقول شاعرية خيالية موهوبة، سليمة لم يفسدها تيار الفحص العلمي، ولا العقلية التحليلية. "[30] فالأسطورة تنحى "في معناها ليست أكثر من قصة خيالية بعيدة كل البعد عن منطق العلاقات الواقعية بين الأشياء كما إن شخوصها لا ينتمون إلى عالم الأسوياء من الناس وإنما هم شواذ خارجون عن طبيعة البشر"[31]، فنجد الأسطورة تشغل حيزا نصيا ضمن المتن الروائي؛ "إذ لم تعد سمة مميزة للمجتمعات البشرية الأولى كما لم تعد وقفا على التفسيرات البدائية لنشأة الكون والطبيعة أو طقوسا سحرية بل امتدت لتشمل البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمعات الحديثة."[32] فتشكل مرجعا تفسيريا لنقل الصورة واضحة عن واقع ما داخل القصيدة أو الرواية مشكلة أحد سمات الرواية الجديدة. – "يقال أيضا أن أيادي طويلة تسهر على تسييره تمتد أصابعها حتى البحور السبعة وتسرق خضرتها من الربع الخالي".

."كنت هائجا مثل حيوان أسطوري. حين تركوني ...ثم خرجوا متجهين إلى مكان مجهول. كانوا قد حاولوا مع حمو العمل نفسه لكنه قاوم بشراسة ولم يستطيعوا لأنه في لحظة حلول غريبة تحول إلى غول قادر على أكل المدينة بأكملها. بناسها..."

."ستخرج حية البحار السبعة التي تختبئ وراء صخور الشاطئ الصامت وستلتهم كل شيء"

." عن رقم سبعة ستقلون إن في الرقم ذاته، سحرا خاصا. بعضهم يقول عنه إنهم رأوه في كبريات المدن بحقيبة كبيرة، يمشي بخيلاء ... إلى البلاد البعيدة ليواصل دراسته...عفوا عن الرقم 7، هناك رواية أخرى ربما فتحت أفاقا جديدة. يقولون إنه انتحر بعدما قام بذبح نفسه من الرقبة..."[33] كما يكرر كلمة أسطوري أربع مرات في الرواية، وحين يذكر الرقم 7 وكأنه يشير إلى عدد سنوات الثورة الجزائرية والتي لم يجني ثمار استقلالها من أوقدوها وتصفية بعضهم نتيجة حسابات خفية مثلما حدث مع الشهيد المهدي بن محمد.

ج. الأمثال الشعبية في الرواية :

فرض تنوع شخصيات الرواية أساليب متنوعة ولغة حوارية ذات بنى متعددة تستلهم تجارب الشعوب المختلفة وتوظف مخزونها الثقافي لتراثها الشعبي، فالصحفي الحسين في تحقيقه في قضية استشهاد أبيه وما يلفها من غموض استدعى له محاورة عدد معتبر من فئات المجتمع. مما جعل خطاب

الرواية. "تميل كتابتها إلى الغوص في البنية المحلية ورصد عادات الشعب وتقاليده وتراثه وتوظيف التراث الإنساني."[34] ليحقق خلفية اتصالية بين زمنين في متنه تجمع الماضي بالحاضر و"لأن عمل الخيال لا يأتي من الفراغ فهو يرتبط . بطريقة أو بأخرى . بالنماذج التي يوفرها التراث."[35] لما يؤديه من وظيفة رمزية تنصهر وتتماهى مع الواقع دون أن تتمثله، إلا أنها تميزه ببعض المحلية والخصوصية، "يديروا من الحبة قبة. مستشفى تجميلي ومن بعد ؟ كثير على البلاد مستشفى من الطراز العالمي ؟الله يسامح صحفيينا، خلينا من همهم"[36].

فهذا المثل يوظف عندما نستكثر شيء وهو في الحقيقة قليل أو نستعظمه. "ما عرفوا والو من الدنيا، ماتوا عيونهم مغمضة ويريدوننا أن نظل مثلهم. لا الدنيا دنيا. و"الفلك ساير داير "[37]."(الله يجيبها في الصواب). تماما مثلما كانت تفعل أمي حينما تشتم الخطر".

3. خاتمة:

تتألق رواية "ضمير الغائب" ببراعة فريدة في تجسيد تنوع لغوي مميز، حيث يندمج النص بتناغم أخاذ بين مستويات متعددة تتنوع بين الفصحى واللغة الدينية واللهجات والأمثال الشعبية. في هذا السياق، يعتبر الثراء اللغوي لهذه الرواية خير شاهد على عمق التجربة لدى واسيني الأعرج وقدرته على استخدام لغات متعددة لنقل روح السرد والتعبير عن تجارب الشخوص داخل المتن.

فعلى مستوى اللغة الفصحى، تظهر الرواية بأسلوب لغوي رفيع ينعكس على تميز الروائي في التعبير برؤية تجسد ملامح خطاب الشخصية الذاتي مما تجلى عنه انسياب النص بسلاسة وجمال لغوي جذاب ، مما يعزز فهم القارئ للأحداث والمشاعر المتنوعة التي يعيشها الشخوص بواقعية لغتهم التي تجري على ألسنتهم وفق مستواهم الثقافي والاجتماعي

ومن ناحية أخرى، تظهر اللغة الدينية والاقتباسات الدينية كعنصر مهم في بناء السياق الروائي. يتخلل النص آيات قرآنية وأحاديث نبوية، مما يمنح الرواية بعمق ديني وروحاني يعزز التفاعل بين السرد والأبعاد الروحية للحكاية.

فيما يتعلق بتوظيف اللهجة، تُضيف الرواية طابعًا شعبيًا وأصالة إلى الحوارات، مما يسهم في تكوين صورة واضحة عن البيئة والثقافة التي ينشأ فيها المتن السردي.

ويكمن جزء من ثراء اللغة في الحضور الأسطوري الذي يثري السرد بعمق ويضفي عليه طابعًا فلكلوريًا وخياليًا. يتناغم الأسطوري مع الواقع ويسهم في بناء جو هجائي يتفاعل مع الأحداث.

أخيرًا، تستند الرواية بشكل ملحوظ على الأمثال الشعبية التي تحمل في طياتها حكمًا وتجارب حياتية. تعزز هذه الأمثال التواصل مع الثقافة الشعبية وتعمق فهم الشخصيات وتفاعلها مع التحديات.

إن رواية "ضمير الغائب" تعتبر أنموذجًا رائعًا لكيفية استخدام التنوع اللغوي بشكل فعّال في خلق تجربة غنية ومميزة للقارئ، حيث ينسج الروائي بين هذه المستويات ببراعة فائقة لتكوين عمل أدبي غني ومتعدد الأوجه.

الإحالات:

[1]. صدوق نور الدين، السردي والشعري، مجلة الفكر العربي، المعاصر، مركز الإنماء العربي، بيروت، ع38 آذار، 1986، ص60،61.

[2].ضمير الغائب، ص84.

[3] واسيني الأعرج، ضمير الغائب، ص6.

[4] المصدر نفسه، ص11

[5] .المصدر نفسه، ص138.

[6].ضمير الغائب، ص 176.

[7].المصدر نفسه، ص204 .

[8].نفسه، ص222، 223 .

[9].نبيلة إبراهيم، فن القص بين النظرية و التطبيق، سلسلة الدراسات النقدية، ط1، دار غريب للطباعة، القاهرة، د ت، ص 181.

[10].حميد لحمداني، أسلوبية الرواية، ص71 .

[11].نفسه، ص69 .

[12]. أدونيس، صدمة الحداثة، الثابت و المتحول، بحث في الإتباع و الإبداع عند العرب، دار العودة، بيروت، ط4،1983، ص286.

[13].علي جعفر العلاق، الشعر و التلقي، ص179 .

[14].محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، في فصول الفكر العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2002 ، ص23 .

[15]. جون كوين، النظرية الشعرية، بناء لغة الشعر، تر: أحمد درويش، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة،2000، 73/1.

[16].ضمير الغائب، ص32.

[17].نفسه، ص155 .

[18].ضمير الغائب، ص : 16 .

[19].المصدر نفسه، ص17.

[20].حسن نجمي، شعرية الفضاء، ص 83.

[21].ضمير الغائب، ص50،51 .

[22].المصدر نفسه، ص 54، 62

[23].المصدر نفسه، ص 63 .

[24] الرواية ، ص : 66 ، 67 .

[25].CHOMSKY. Noam, La linguistique cartésienne, Paris. Seuil, 1969 p43.

[26].ضمير الغائب، ص31 .

[27].ضمير الغائب، ص 34 .

[28].أحمد محمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1 2005، ص143.

[29]. ينظر: مخيائيل باختين، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة، دار الفكر، للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1987، ص91.

[30].ياسين الأيوبي، مذاهب الأدب، معالم وانعكاسات الرمزية، ج2، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص209.

[31].شفيع السيد، اتجاهات الرواية العربية المعاصرة في مصر، دار الفكر العربي، ط 3، 1996، ص 55.

[32] .نضال صالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص7.

[33].ضمير الغائب، ص 16، 48، 49، 153، 109، 110.

[34].محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2002، ص، 11

[35]. بشير محمودي، بنية الحدث وطبيعته في الرواية الجزائرية، دراسات جزائرية، دورية محكمة يصدرها "مخبر الخطاب الأدبي في الجزائر" جامعة وهران، ع2، مارس 2005، ص، 230.

[36].ضمير الغائب، ص18.

[37].المصدر نفسه، ص155 .